# إبداع وتقدير

**المقدمة**

((قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ;وَيَسّرْ لي أَمْري; َواحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ;يَفْقَهُوا قَوْلِي)).

الخطاب أداة توصيل تتولى نقل المضامين الفكرية، والسياسية، والمشاعرية من المعطي (الخطيب) إلى المتلقي (المخاطَب)، وما من حركة سياسية، أو ثورة جماهيرية، أو دولة قوية إلا ولها خطيب يتولى طرح أهدافها، وتحديد آليات تحقيقها ويحذر من الأخطار المحدقة بها.

لحظة الخطاب هي لحظة الكلام التي تمنح المعطي قوة التأثير في المتلقي، ومَلَكة النفوذ إلى عمقه، ويشعر معها أنه بقدر ما ينطلق من عمقه كخطيب سينفذ إلى عمق المتلقي كمخاطَب، ولا يتأتّى له ذلك ما لم يتمتع بوعي مركب، وعي المبادئ التي يدعو لها.. الواقع الذي يحيط بشعبه.. المخاطر المحدقة به.. الطموحات التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج التي تتكفل بإحداث النقلة النوعية المنشودة، وكذلك وعي البنيوية الخطابية التي تمتزج فيها مفردات اللغة بدقة المفاهيم، وصدق المشاعر باتجاه التقارب الجادّ لأحاسيس الناس.

العطاء والأخذ كمادة للتداول، والمعطي والمتلقي كأطراف للتداول، لا يُشكّل ذلك بقرار، أي حين يجالس الإنسان مَن هو أكثر منه ثقافة وأسبق تربية، لاشك أنه أمام واقع التلقي، إذ لا يوجد مُعطٍ مطلق ودائم ومُتلقٍ مطلق ودائم؛ لأننا لسنا معصومين أو ملائكة، إنما هي نسبية تحكم الطرفين..

هذه الخطب أفرزتها معاناة مستوحاة من عذابات إنسان العراق والعالم، وصاغتها طموحات الإنسان ذاته، وحددت اتجاهها إرادة الإنسان المعطي؛ لذا كانت مرتجلة دونما تحضير مسبق أو زخرفة متكلفة تظهر فيها الصنعة الكتابية وهذا هو ديدن الدكتور ابراهيم الجعفري في كل خطبه.

مؤسسة الكتاب الثقافية

## إبداع وتقدير

## كلمة الدكتور الجعفري في حفل تكريم أبرز أساتذة التأريخ لعام 2011 بجائزة شيخ المؤرخين الدكتور حسين أمين السنوية

بسم الله الرحمن الرحيم
((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)).

كثيرة هي النظريات التي وُضِعت لتفسير التأريخ، وعندما نقول نظريات لا ينبغي أن نشتبه بأننا عندما نقرأ التأريخ نقرأه من وحي الرغبة العابرة والأنس الثقافي.. نظريات التأريخ حددت مسار أمم، وأودت بحضارات، وأنجبت حضارات؛ فليس من السهل أن ننظر إلى التأريخ على أنه قضية طواها الزمن، فمفاعلات التأريخ مولدات الحاضر، ومولدات المستقبل.. حتى الأمس القريب النظرية المادية التي قدمت لنا تفسيراً مادياً للتأريخ رهنت العالم كله من عام 1917الثورة البلشفية حتى عام 1985 البروسترويكا التي جاء بها غورباتشوف فسّرت التأريخ تفسيراً مادياً، وقدمت منظومة من القيم في بنيتها العلوية المبنية على قاعدة فلسفية تتضمن تقديم رؤية محددة للكون وللحياة.

هكذا عاش العالم في حالة صراع بين معسكر وآخر، وظل أصحاب النظرية الماركسية يعتقدون بالحتمية التأريخية، وانتصار طبقة العمال والبروليتاريا بناءً على حركة الثالوث الذي يولد صراعاً جدلياً بين طبقة الأم وطبقة البنت فينتقل إلى طبقة جديدة لا تشبه الأولى ولا الثانية؛ حتى يمضي العالم مثلما انطلق من الشيوعية الأولى؛ لينتهي إلى الشيوعية الثانية، وقد ترتبت عليها ثقافات، وترتبت عليها حروب، ومشاكل واستحقاقات كثيرة جداً ليس هنا مجال سردها تفصيلياً للدخول في كل نظرية، لكن أريد أن أثبت أن الدالة التأريخية تملك من حيث التأثير امتداداً للحاضر بل تتجاوز الحاضر إلى المستقبل؛ لذا ينبغي أن

نقرأ التأريخ قراءة مستقبلية فنربط بين الأسباب والنتائج حتى نعرف، ونحن نقرأ التأريخ إنما نحن نستشرف المستقبل، فالمخزون التأريخي يكون مادة تمولنا للعبور إلى المستقبل ومعرفته.

نظرية (كار ليل) نظرية البطولة فسّرت التأريخ على أنه يحركه بطل، وهذا البطل يقف خلف الستار وهو الذي يصنع أمة، وكان معجباً كثيراً بنابليون بونابرت، وبرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، يتصور أن الأمة الفرنسية هي تمظهر لنابليون مثلما كانت الأمة العربية تمظهراً لمحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم).. كل هذه النظريات مبنية على استقراءات معينة قد تكون ناقصة، وقد تكون كاملة.. فيها نقاط قوة، وعليها نقاط ضعف لكني أقول: إن النظريات المتعددة التي تولت تفسير التأريخ كلفت العالم الكثير، كذلك (رينان) الأنثروبولجست المختص في علوم الاجتماع وعلم أصل المجتمع وأصول المجتمعات هو الآخر قسم العالم إلى شعوب ذات أصل سامي وأصول آرية، وجنى على الشعوب ذات الأصل السامي بأنها تجنح إلى الخيال، وغير قادرة على أن تبني مجداً في عصر يكون فيه العقل والجانب الواقعي هو السائد في الوجود؛ لذلك عندما يفسر الشعوب السامية كاليهود والعرب وبعض الأقوام الأخرى يعطيها درجة أدنى من حيث القيمة، ويبرر للشعوب ذات الأصل الآري بأن تأخذ زمام المبادرة، وتتحكم في الشعوب ذات الأصل السامي، وتأخذ بها؛ حتى تتسنم بها موقعاً تحت الشمس.

حتى الأمس القريب هذه النظريات كانوا يثقفون عليها في المدارس الغربية ونظريات أخرى كنظرية منتسكيو الذي ربط بين الجغرافية والتأريخ، نعم..وقد أشار اليها ابن سينا قبل دلك.... هناك علاقة جدلية تأريخية بعض الأحيان بأن السياسة تؤثر في الجغرافية والجغرافية تؤثر بدورها في التأريخ لكن كان يعتقد أن الشعوب والأمم تتشابه، وعندما تتشابه في الجغرافية تتشابه مجتمعياً، ومن النظريات التي ظهرت في القرن العشرين 1919 و 1921 النظرية الفاشية التي تبناها موسوليني في إيطاليا، والنظرية النازية التي تبناها هتلر فيما بعد وجرّت العالم إلى حرب عالمية ثانية أودت بما لا يقل عن 50 مليون ضحية في الحرب العالمية الثانية، وهناك الكثير ممن يفسرون التأريخ على طريقتهم..
السؤال هنا: أين نحن من التأريخ.. كيف نفهم التاريخ.. كيف نفسر التاريخ؟.
القرآن الكريم يسترعي انتباهنا بأن نعبر إلى التأريخ، ولا ينبغي أن نعتبر التأريخ أمراً انطوى، وانتهى تأثيره:
((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)).

أرحلوا إلى التأريخ، وانتقلوا إليه؛ فتضيفوا أعمار تلك الأقوام إلى أعماركم والقصص والقصة هي تتبع الأثر كالقصاص الذي يعبّر عن تتبع آثار الجاني، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة بأن الناس كانوا أمة واحدة متآلفين ومتعايشين، ولا توجد هنالك نزاعات، ولا توجد هنالك خلافات فالناس يأكلون بمبدأ التعايش الفطري، ولا يعتدي أحد على أحد، لكن عندما كثر السكان نشأت في ظل التعايش الفطري اختلافات فطرية طبيعية ومع غياب القيم تحول الاختلاف الفطري إلى نزاعات ومشاكل ففتح الله - تبارك وتعالى - لهم باب الرحمة، وأنزل أنبياءه ورسله؛ حتى يأخذوا بيد البشرية لئلا تنحرف، وتذهب بعيداً عن الفطرة:
((فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)).

النظرية الإسلامية في تفسير التأريخ تقوم على أساس البنية التحتية في الإنسان الفرد باعتباره وحدة بناء المجتمع هي المعنية في المخاطبة.. هذا البناء الفوقي والتمظهر الخارجي يتأثر كثيراً بالبنية التحتية الأساسية؛ فحكموا على الدين من خلال التدين، لقد ربط جون ادمز بين البنيتين اتحتية والفوقية واعتبر البنية التحتية هي الاساس فقد أشار بشكل صريح عندما قال : ما كان لأمريكا أن تتحرر من نير الاحتلال البرطاني من الناحية السياسية ( كبنية فوقية ) لو لم تتحرر من الناحية العقلية بالتفكير ومن الناحية النفسية بالمشاعر ( كبنية تحية ) وأكد على الاستقلال الداخلي قبل الاستقلال الخارجي وليس المعسكر الشرقي بعيدا عن هده الحقيقة التأريخية اجتماعياُ. فـ (لينين) في القرن العشرين كان يقول: القمة تستجيب إلى القاعدة... ماذا تعني القمة، وماذا تعني القاعدة؟
القاعدة هي البنية التحتية، والقمة تستجيب للقاعدة، لكنه فصل ميكانيكياً بين القمة والقاعدة، أما الإمام علي (عليه السلام) فلم يفصل بين القمة والقاعدة، وقال القمة تولد من رحم القاعدة:
(كيف ما تكونوا يولَّ عليكم).

هذه هي نظرية القرآن الكريم:
((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)).

هذه حقائق علمية اجتماعية يجب أن نقرأها بموضوعية، ونتفاعل معها بموضوعية، ونتشرف بأن تراثنا غزير بهذه المفاهيم وهذه الآراء.. من هنا

يكـون الحـديث عـن مفـاعلات التـأريخ مـن الزاويـة الإنـسانية الـصحيحة التـي تستجيب للفطرة، وتعيد الإنسان إلى فطرته والفطرة تعني الدين:
((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)).

هذا ما يسمى بالحسن العقلي والقبح العقلي، فالدين فطري، ثم يأتي إليك من الناحية التشريعية.. نحن في هذه المجتمعات التي نعيش فيها اليوم تزخر بهذه الثروة المعنوية..
نريد أن نحارب الفساد من أين نبدأ.. نبدأ بالمؤسسات، ونبدأ بالأجهزة الأمنية والمخابرات، ونأتي إلى المؤسسة، ونذهب إلى البيت، نرى أن كان هناك فساد حتى نلاحقه.. الآن ثروة طائلة وفساد هنا وهناك.. وفساد مالي وإعلامي وسياسي واليوم فساد علمي.. من أين نبدأ؟.

نبدأ من مخاطبة الإنسان في داخله، ونخاطب ضميره ووجدانه، وإن لم تحركه مكامن القوة في داخله لم نضبط حركته، فنحن لا نستطيع أن نراقبه في كل مكان.. النظريات التي اعتمدتها الديانات بغض النظر عن تعددها، وتمرحلها قامت وركزت على الجانب الأخلاقي والجانب المعنوي في فهم الحياة والدين، وهذا هو الذي يجعل الجندي مقداماً وشجاعاً إلى حد التفاني، ويجعل الإنسان المحتاج والفقير عندما يكون مؤتمن على ثروة مالية طائلة وهو محتاج تأبى عليه أخلاقيته أن يمد يده لحرام.

لننظر الآن إلى الأبديات الموجودة عند السلاطين يريدون أن يحكموا إلى الأبد، ومنهم معمر القذافي الذي حكم ليبيا 42 سنة، ولنفترض أن المقاسات التي جاءت به إلى قيادة ليبيا كانت صحيحة؟! لكن الرحم الليبي الذي أنجبه قادر على أن ينجب شخصاً آخر، ولنفترض جدلا أنه كفوء؟! لهذا الموقع لا يعني أن تتوسد، وتذهب إلى القبر، وتبقى أنت الزعيم الأوحد، ثم تضع شخصاً آخر ينتظر في الطابور من أولادك يكون زعيما لليبيا!!.. ما هذا العالم الذي نعيشه؟! عالم مهزلة، وقل مثل هذا في بقية الدول، وتصور العراق الذي تربع فيه صدام على صدر العراقيين خمساً وثلاثين سنة، وذهبت الأموال الطائلة والهائلة إلى الاضطهاد والدمار الذي لحق البلد من مناطق كردستان إلى الجنوب حيث وزعوا القتل بالجملة في حلبجة والأنفال وانتفاضة الأنبار والانتفاضة الشعبانية وقتل العلماء كان صدام يقتل الإنسان على أبسط الأسباب، حتى انك إذا سألت عراقياً، فلا تقل له: هل لديك شهيد إنما قل له كم شهيداً عندك..

ينبغي أن نضفي على دراساتنا التأريخية بعداً حيوياً وليس فقط حياتياً وليس فقط مسألة أكاديمية جامدة وجافة.. من سوء الحظ أن يتأثر هتلر بمعلم التأريخ وهو كان متخلفاً بالدروس الأخرى، لكن معلم التأريخ كان عنصرياً، فغذى، وغرز فيه عقدة التفاضل وسيادة الدم الألماني على بقية الدول، فحوّله إلى مجرم وحشي، ومنهم من أخذ التأريخ على الطريقة القرآنية، واعتبر به:
((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)).

هذا ليس حديث كذب وافتراء إنما عبرة خزين نضيفه من التأريخ، ونضيفه إلى تجاربنا؛ لذا أتمنى أن تتجه الأطاريح والدراسات على كل المستويات إلى أن هذا التأريخ العراقي المليء بهذه الكنوز يجب أن نفكر كيف نجعله حاضراً بأيدينا.

تعرفون أن التاريخ في كثير من الأحيان كتب تحت سياط السلطان، وإغراءات الحكام، وإغراء الأصفر الرنان، وهؤلاء عندما يكتبون لا يكتبون ما يعتقدون وإنما يكتبون ما يُملى عليهم؛ لذا أعتقد أن عالم التأريخ ما لم يكن يسبر غورِ التأريخ بشراع المعرفة لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة، وما لم يكن بطلاً ومناضلاً لا يستطيع أن يشهد على الحقيقة كما هي؛ وما يدريك لعل الكثير مما نعتبرها مسلمات تأريخية سيثبت لنا المستقبل أنها ليست كذلك، وإلا ما هذا المشهد القرآني الكريم:
((وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأشْرَار)).

كنا نتصورهم غير جيدين، ويوم القيامة يظهرون خلاف ذلك؛ لأننا قرأنا التأريخ، ولم نحكم العقل، ولم نخضع إلى معطيات علم الاجتماع، والآن أمامنا حاضر يسرق علناً، دول الآن تتحرك، ويوجد فيها حالة حضور اجتماعي، وقد بدأت من تونس، وقد عبّرنا عنها بأن القضية ليست تونسية، ولن تقتصر على أرض تونس، ولا على شعب تونس إنما انتقلت إلى مصر، ثم انتقلت إلى بلدان أخرى، والإعلام يتعامل بخطوط متوازية، ووصلت إلى البحرين، وأخذت نمطية مضادة.
لماذا؟... ما الفرق بين الطفل البحريني، والطفل اليمني، والليبي، والمصري، والعراقي؟
ما الفرق بين المرأة البحرينية ونظيراتها في بلدان العالم؟.

ليس هناك فرق أبداً.. هذا عصر شهود الشعوب على حكوماتها.. ألم يقول (إبراهام لنكولن) الرئيس السادس عشر لأميركا: الديمقراطية من الشعب وإلى الشعب وبواسطة الشعب.. فلماذا لا يعطون مجالاً للشعب، ولماذا هم خائفون من الشعب.

الشعب عندما يصوت لك في صندوق الاقتراع يحترم لكن الشعب الذي يقول لك خطأ، وهذه فساد يجب أن تصغي اليه لا أن تواجهه بالرصاص، بل لم يكفهم إنما جاؤوا بقوات مسلحة من خارج البحرين لتقف إلى جانبهم، ويوجهوا الرصاص إلى صدور عزلاء في ساحة اللؤلؤة.. هذه كارثة.. من يقرأ عن الانتفاضة الشعبانية قي 1990، وكيف أصاب الصمم والخرس القنوات الإعلامية والحكومات العربية، ويريد أن يتصورها فلينظر إلى ساحة ليبيا بالضبط هكذا.. ربما كان الشاعر أبو قاسم الشابي على موعد مع القدر عندما قال:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر

ربما كان على موعد أن تشهد تونس، وما كان يدري أن هذه الكلمات كانت صدى سبقه صوت الشعب التونسي، عندما تحرك استجاب له القدر، وغيّر جمهورية تونس الثانية، ولم يكن أمام زين العابدين بن علي إلا أن يخرج.

أوجّه كلمة الشكر والتقدير والامتنان إلى أستاذنا الفاضل الدكتور حسين أمين، وأسأل الله (تبارك وتعالى)، أن يمد بعمره، ويجزل عطاءه التأريخي وتنظيره إلى التأريخ، كما أشكر الأخ الدكتور معالي الأستاذ (سعدون الدليمي) وزير الدفاع السابق ووزير الثقافة الحالي.. أظن أن الدكتور (سعدون الدليمي)، عندما كان في وزارة الدفاع كانت الدفاع تحتاج إلى اطار الثقافة، واستغرب المستغربون وأنا أعتبر هذا عنصر قوة، وعرفته مثقفاً قبل أن أعرفه في مجال التعاطي العسكري، واليوم يبدو أن البعض لا يعرفه مثقفاً، ويقول ما الذي أتى به إلى وزارة الثقافة وهو كان وزير الدفاع.. أنا أعتقد أنه عاد إلى أصله، وهو أساسا مثقف، ونحن نستطيع أن نتصور مثقفاً غير وزير، لكن لا نتصور وزيراً غير مثقف، فالوزير أياً كان وفي أي وزارة لابد أن يكون مثقفاً لئلا يلجأ إلى السوط - لا سمح الله- في طريقة التعامل مع موظفيه ومواطنيه.

الثقافة هي البديل الطبيعي لكل فكرة، وحمولة أي فكرة تنطلق من عمق المعطي إلى عمق المتلقي، وهي البديل لحل أي أزمة عندما تستعصي.. ما يكون عصياً على السلاح لا يكون عصياً على الثقافة.
أشكر لكم هذا الحضور، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.